بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 15 نوفمبر 2018

تجديد علم الكلام:
ملاحظات نقديّة

عبد العزيز راجل
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

تجديد علم الكلام: ملاحظات نقديّة[1]

1- يمثّل هذا البحث مساهمة عبد العزيز راجل في الكتاب الجماعي «محاولات تجديد الفكر الإسلامي: مقاربة نقديّة» - منشورات مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث - ط1 2016 - الجزء الأوّل - ص ص 121 - 160.

ملخّص البحث:

ارتفعت دعاوى التجديد التي تستهدف العلوم الإسلاميّة خاصّة، وأبرزها علم الكلام، باعتباره المرشّحَ لتقديم إجابات عن التحدّيات المعاصرة التي تُطرح حول المعتقدات الإسلاميّة، فوجدنا، في عصرنا الحالي، مجموعة من المفكّرين والمثقفين أكثر تحمّساً وجرأة لتجديد علم الكلام، سواء من السنّة أم من الشيعة، فمنهم من نحا منحى التجديد على مستوى المنهج، ومنهم من دعا إلى التجديد على مستوى الموضوع، وبعضهم الآخر دعا إلى التجديد على مستوى أضلاعه المعرفيّة كافةً (مستوى اللغة، الموضوع، المنهج، الأهداف، المسائل). وتتناول هذه الدراسة الموضوع، من خلال الحديث عن علم الكلام القديم والجديد، تعريفاً، ومنهجاً، وموضوعات، وغايات، وكذا بعض المواقف والأحكام حول هذا العلم قديماً وحديثاً، ثمّ الحديث عن بعض الملاحظات النقديّة حول دعاوى تجديده التي توزّعت بين مشكّكٍ في هذه الدعوى، ومناهضٍ للفكرة من جذورها، باعتبارها تروم نسف المنظومة الاعتقاديّة لأهل السنّة، ومتحمّسٍ لها، باعتبارها جديرة بمواجهة التحدّيات المعاصرة، في مجال الفكر والمعتقد، وبين داعٍ لتجاوز هذا العلم بالمرّة، باعتباره يمثّل حقبة تاريخيّة، تعبّر عن «براديم» خاص بها.

على سبيل التقديم:

يُعدُّ علم الكلام من أشرف العلوم الإسلاميّة، فهو يُمثّل، في حقيقته، أصالة الفكر الإسلامي، ويكشف عن عبقريّة المسلمين في وضع المناهج وأسس البحث العلمي بالمقاييس العقليّة، غير أنّ التراجع والانحسار الذي أصاب الفكر الإسلامي عموماً، بعد القرن الخامس الهجري، انعكس سلباً على الفكر الكلامي، فاتّسم هذا الأخير بالتعقيد والجمود، وأُغرِق في التجريد، ولم يعد مرتبطاً بواقعه، فوقف منه الكثير من العلماء موقفاً سلبيّاً؛ فتشكّلت، على إثر ذلك، حركة مناهضة له في الماضي، وفي الحاضر، فانعكس هذا الموقف السلبي على وضعيّة الأمّة الفكريّة، وحال دون تقدّمها وازدهارها، ما حدا بتيّار تجديدي إصلاحي انبعث في القرون الأخيرة، يمثله علماء مصلحون ظهروا في ربوع الوطن الإسلامي، منادين بضرورة التجديد والاجتهاد في الصعد كافة.

وهكذا، ارتفعت دعاوى التجديد تستهدف العلوم الإسلاميّة خاصّة، وأبرزها علم الكلام، باعتباره المرشّحَ لتقديم إجابات عن التحدّيات المعاصرة التي تستهدف المعتقدات الإسلاميّة، فوجدنا، في عصرنا الحالي، لفيفاً من المفكّرين والمثقفين أكثر تحمّساً وجرأة لتجديد علم الكلام، سواء من السنّة أم من الشيعة.

وسأتناول هذا الموضوع انطلاقاً من ثلاث نقاط أساسيّة:

1- علم الكلام في ثوبه القديم بين المناهضين والمؤيّدين.

2- دعاوى تجديد علم الكلام في الساحتين السنيّة والشيعيّة.

3- اتجاهات تجديد علم الكلام.

4- ملاحظات نقديّة حول الكلام الجديد.

1- علم الكلام في ثوبه القديم بين المناهضين والمؤيّدين:

لا شكّ في أنّ الذين رفضوا علم الكلام جملةً وتفصيلاً، لهم مبرّرات وأسباب مرتبطة بظروف مرّ بها المسلمون، وكذا الذين تحفّظوا على المنهجيّة واللغة التي سلكها هذا العلم في معالجة بعض القضايا. وهؤلاء الرافضون الخوض في هذا العلم، والاشتغال به؛ معتبرين إيّاه مدخلاً للكفر ومضيعة للوقت، كان لموقفهم هذا تداعيات سلبيّة في عصرنا على فئات عريضة من المجتمع، فظهرت أحكام غير منصفة لهذا العلم الذي عدَّه علماؤنا أصلاً لكلّ العلوم الدينيّة، ويُعزى ذلك إلى أنّه لم يتمّ، إلى حدود الساعة، تقييم الإنجاز الكلامي، والنظر إليه بموضوعيّة، بدلاً من الحكم عليه بمقاييس عصرنا، أو استناداً لوقائع تاريخيّة.

لا شكّ في أنّ نتائج عمليّة تقييم المنجز الكلامي واستيعابه، ستفضي بنا إلى ضرورة وأهميّة تجديد علم الكلام، والعمل على إحياء جوانب القوّة فيه، طالما أنّ التحدّيات التي تستهدف العقيدة الإسلاميّة، ما تزال مطروحة وقائمة.

1-1- مناهضة علم الكلام قديماً:

يقول الإمام الشافعي: «حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد، ويُحملوا على الإبل، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويُنادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنّة، وأقبل على علم الكلام».[1]

وقد أوصى الإمام الجويني، عند موته، باجتناب علم الكلام، قائلاً: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بعلم الكلام، فلو عرفت أنّه يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به».[2]

وقال الفخر الرازي: «لقد تأمّلت الطرق الكلاميّة، والمناهج الفلسفيّة، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً» (...) إلى أن قال: «و من جرّب مثل تجربتي فرّ وكرّ».

ويقول ابن خلدون: «وعلى الجملة، ينبغي أن تعلم أنّ هذا العلم الذي هو علم الكلام، غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم؛ إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنّة كفَونا شأنهم فيما دوَّنوا وكتبوا».[3]

ويقول أبو حامد الغزالي:

«فاعلم أنّ حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلّة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو مجادلة مذمومة، وهي من البدع، كما سيأتي بيانه، وإمّا مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترّهات وهذيان تزدريها الطباع».[4]

من خلال الأقوال التي عرضناها لهؤلاء الأئمة الأفذاذ، نجد أنّ بعضهم مارس الكلام، وأدرك خطورته على الدين، فنصح بعدم استعماله؛ لأنّه يفضي إلى ترك كتاب الله وسنّة رسوله، وبعضهم الآخر رأى أنّه لم تعد الحاجة قائمة لعلم الكلام؛ لأنّ بواعثه، ونشأته، ارتبطت بموضوعات ومباحث زالت في عصرهم. كما

1- السيوطي، جلال الدين، صون المنطق والكلام عن فنّي المنطق والكلام، تحقيق: علي سامي النشار، وسعاد علي عبد الرزاق، مجمع البحوث الإسلاميّة، القاهرة، 1970م، ص 15.

2- فتح الباري (350/13)، نقلاً عن كتاب: تحريم النظر في كتب الكلام للإمام ابن قدامة المقدسي، تحقيق: سعيد دمشقي، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 1410هـ/1990م، ص 18 - 19.

3- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدّمة، حققها وقدّم لها وعلّق عليها: عبد السلام الشدادي، الدار البيضاء، ط1، 2005م، ج 3، ص 36.

4- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار الرشاد الحديثة، المجلد 1، ص 22، الفقرة تحت عنوان: العلم المحمود والمذموم.

نجد أنّ أحد العلماء عاب على منهج علم الكلام القائم على الجدل، ومن ثَمَّ هو لا يُوصل إلى المعرفة اليقينيّة، وهناك من أكَّد انعدام جدوى هذا العلم؛ لأنّ ما يُستدَلّ به يوجد في القرآن الكريم.

هكذا، نلاحظ أنّ هذه المناهضة الشديدة لعلم الكلام، من قطاع كبير من علماء السلف، لها ما يبرّرها في زمانها، ولعلّ أهمّها سوء استخدام المتكلّمين للجدل الذي أفضى إلى ظهور نزعة التكفير، والفتنة، والفُرقة، بيد أنّ هذا الانحراف كان من الأجدر أن يواجه في حينه؛ ليصحّح مسار هذا العلم الضروري للمسلم، عوض رفضه بشكل مطلق. وحسبُنا، في هذا الصدد، أن نُدرج قولة للعلّامة سعد الدين التفتازاني: «وما نُقل عن بعض السلف من الطعن فيه، والمنع منه، فإنّما هو المتعصّب في الدين، والقاصر في تحصيل اليقين، والقاصد إفساد عقائد المسلمين، والخائض فيما لا يفتقر إليه من غوامض المتفلسفين، وإلّا فكيف يتصوّر المنع عمّا هو أصل الواجبات، وأساس المشروعات»؟[5]

فمناهضة علم الكلام قديماً، لم تكن لتسريَ على جميع العلماء المسلمين، وإنّما نجد فريقاً منهم أيّد الاشتغال بعلم الكلام؛ من هؤلاء الماتريدي الذي استهلّ كتابه التوحيد ببيان أنّ سبيل معرفة الدين تتمّ بالنظر بجانب العقل، ونجد للأشعري كتاب «استحسان الخوض في علم الكلام» الذي يبيّن فيه ضرورة النظر في الدين، ومن بعده الأشاعرة، أمثال الباقلاني، والجويني، ومن المعتزلة القاضي عبد الجبار (...)، وقد قدّم هؤلاء العلماء المؤيّدون لعلم الكلام أدلّة نقليّة وعقليّة، منها:

- الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة اليقين: **{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: 11]**.

- إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجّة، وإلزام المعاندين بإقامة البراهين.

- حفظ قواعد الدين من أن تُزلزلها شُبَهُ المبطلين.

- أنّه تُبْنى عليه العلوم الشرعيّة، فإنّه أساسها، وإليه يؤول أخذاً، واقتباساً.

- صحّة النية؛ إذ بها يُرجى قبول العمل، وغاية ذلك كلّه الفوز بسعادة الدارين.

استند هذا الفريق إلى ما ورد في القرآن الكريم، في أكثر من موضع، في الحثّ على النظر، وإقامة البرهان والدليل[6]، فبالإضافة إلى فريق المناهضين والمؤيّدين، نجد فريقاً توسّط بين المعارضة والتأييد

5- التفتازاني، سعد الدين، شرح العقائد النسفيّة، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليّات الأزهريّة، مصر، ط 1، 1407هـ/1987م، ص 12.

6- المغربي، علي عبد الفتاح، الفرق الكلاميّة الإسلاميّة مدخل ودراسة - سلسلة دراسات كلاميّة (1)، الناشر مكتبة وهبة، ط 1، 1407هـ/1986م، ص 107 - 108، بتصرّف.

المطلقين لعلم الكلام، وهؤلاء يميِّزون بين موضوعات علم الكلام، فمنه الكلام المحمود، ومنه الكلام المذموم. وأيضاً من حيث المشتغلين به، والممنوعين من الاشتغال به؛ أي: أنّ علم الكلام مباح عند الحاجة إليه في إزالة الشكوك في أصول العقائد، ويكون مذموماً حينما يكون الكلام مخالفاً للكتاب والسنّة[7].

1-2- مناهضة علم الكلام حديثاً:

التيّار المناهض لعلم الكلام، في عصرنا الحالي، ما هو إلا امتداد للتيار الرافض لعلم الكلام قديماً، فالمبرّرات والطروحات نفسها المعارضة لهذا الأخير، يستند عليها المُحْدَثون، وبما أنّ الجمود والانحسار الذي أصاب الفكر الإسلامي انعكس سلباً على الفكر الكلامي، كان من المستبعد أن يتمّ الحديث، في وقتنا الحالي، عن التجديد والاجتهاد في الفكر الكلامي، في ظلّ تخلّفٍ يلقي بظلاله على مناحي الحياة كافةً، وثقافة يغلب عليها طابع التحريم والتقديس.

إن غضّ الطرف عن الاجتهاد في الحقل الكلامي؛ أي: (عقلنة العقيدة)، سيكرّس واقع التبعيّة والتقليد؛ لأنّ ما يحمله المسلمون من تصوّرات ومعتقدات تعدّ أساس تصرّفاتهم، ومصدر أفعالهم.

ويمثّل هذا التيار المعارض بقوّة لعلم الكلام، دراسةً وتجديداً، ما يعرف بـــ (التيار السلفي) أو (الظاهري)، فالسمة المميزة لهذا التيّار هي التمسّك بتقليد وحفظ آراء وفتاوى الرجال الماضين، وغلق باب الاجتهاد في العقيدة والشريعة، والاقتصار على ظاهر النصوص، وكأنّ الحياة ساكنة، والزمان يكرّر نفسه، فضلاً عن منعهم أيّة **محاولة لعقلنة الفهم العقيدي**، حسب تعبير الدكتور عبد الجبار الرفاعي[8]، فهم يستندون إلى مقولات بعض علماء السلف في رفضهم علم الكلام، والاشتغال به، وإدراج الخوض فيه من المحظورات، دون ربطها بالسياق الذي قِيلت فيه، فهم لم يرفضوا علم الكلام لذاته، وإنّما رفضوه حين أدركوا أنّه لم يعد يؤدّي وظيفته كما كان، فنأخذ، مثلاً، أبا حامد الغزالي، فهو رفض علم الكلام، بحسب الرؤية اليونانيّة التي تُعارض الرؤية القرآنيّة، وأبا حنيفة، حينما نهى ابنه حمَّاداً عن الاشتغال بالكلام، فلا يعود نهيه إلى طبيعة الكلام، وإنّما إلى سوء استخدام المتكلّمين للجدل، ثمّ نجد أنّ العوامل التي أدّت إلى نشأة علم الكلام، أسهمت في بروز الفترة الزاهرة لهذا العلم، حيث اتّسم بالواقعيّة في تطوّره، ومواكبته للأحداث والمستجدات، والواقعيّة في منهجه وموضوعه، منذ ظهور هذا العلم في ظلّ الريادة، إلى أن أصابه الانحسار بعد القرن الخامس، كما أصاب الفكر الإسلامي عموماً.

7- المرجع نفسه، ص 113.

8- الرفاعي، عبد الجبار، افتتاحيّة مجلة قضايا إسلاميّة معاصرة، العددان 16-17، 2001م، ص 8، بتصرّف.

يظنّ مناهضو علم الكلام أنّ الحديث عن أهميّة علم الكلام، في حياتنا المعاصرة، بعثٌ من جديد للصراعات بين الفرق الكلاميّة، وإحياء المشكلات الكلاميّة، ويظنّون، كذلك، أنّ هذا العلم استنفد غرضه وظيفةً وموضوعاً، ويردّدون -كما ذكر ابن خلدون- **أنّ الملاحدة لم يعد لهم وجود، ومن ثَمَّ علم الكلام لم تعد الحاجة إليه قائمة**.

أقول: لقد اشتدّت الحاجة الآن بشكل كبير إلى ضرورة تجديد علم الكلام، فالإلحاد ما زال قائماً، ولكن في ثوب جديد هو العلم والفلسفات الحديثة التي أصبحت تُنافي المقولات الدينيّة، وتطرح شكوكاً حول الدين، وأصبح هناك تحدّيات حضاريّة وسياسيّة تواجه المسلمين، وتحتاج إلى دحض وتفنيد بالحجّة والبرهان.

1-3- تداخل علم الكلام مع العلوم الأخرى:

يُعدّ علم الكلام أصلاً لكلّ العلوم الدينيّة، ويذهب الإمام الغزّالي إلى أنّ العلوم تنقسم إلى قسمين: عقليّة ودينيّة، وتنقسم كلّ من العلوم الدينيّة والعقليّة إلى علوم كليّة، وأخرى جزئيّة، ويحتلُّ علم الكلام مركز الصدارة بين العلوم الدينيّة.[9]

تتداخل بعض مباحث علم الكلام بعلوم أخرى، لا سيّما مع ولادة العلوم الإنسانيّة، إضافة إلى ارتباطه الوثيق مع العلوم الشرعيّة، وترجع أسباب التداخل إلى عوامل سنقف عند بعضها، كما سنعرّج على تجلّيات هذا التداخل لعلم الكلام مع العلوم الأخرى.

أسباب تداخل علم الكلام مع العلوم الأخرى:

- **شموليّة الإسلام وعلومه:** إنّ طبيعة الإسلام نفسه، والعلوم المرتبطة به، تأبى التمييز بين ما هو عقيدي وما هو عملي، فالإسلام إيمان، وعمل، وعقيدة، وشريعة دين ودنيا.

- **موسوعيّة علماء الإسلام:** عدد كبير من الأقطاب والأفذاذ في تاريخ العلوم الإسلاميّة استطاعوا أن يكونوا موسوعيين في تكوينهم العلمي، حيث يتفوّقون في مجالات وعلوم عديدة، لا سيّما في مجال العقيدة وما يرتبط بها، والفقه وما يرتبط به، وإذا عدنا إلى تراجم معظم الأفذاذ، نجد هذه العبارة تتكرّر عند الحديث عنهم؛ أي: تراجمهم «(...) الفقيه الأصولي المتكلم (...)».[10] هذان السببان يدلّان على أنّ العلوم الإسلاميّة حدودها مفتوحة. أمّا فيما يتعلّق بتقاطع علم من العلوم الإسلاميّة مع العلوم الإنسانيّة، لاسيّما إذا أخذنا علم

9- الغزالي، أبو حامد، المستصفى في علم الأصول، م 1، طبعة جديدة، رتّبها وضبطها: محمّد عبد السلام الشافي، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ص 6.

10- بلاجي، عبد السلام، تطوّر علم الأصول وتأثره بالمباحث الكلاميّة، كليّة الآداب محمّد الخامس، الرباط - وحدة المناهج - أطروحة دكتوراه غير منشورة، ص 187 - 188.

الكلام نموذجاً، فنجد ذلك أمراً طبيعيّاً، وظاهرة قديمة عرف خلالها علم الكلام تأثراً وتفاعلاً بين العلوم التي ظهرت في ذلك العصر، ومثال ذلك التداخل الذي عرفه علم الكلام مع الفلسفة.

أ-علم الكلام والفلسفة:

من أسباب ظهور هذا العلم ترجمة كتب الفلاسفة ودخولها رقعة العالم الإسلامي؛ حيث أصبحت تشكّل تهديداً وخطراً يمسّ عقيدة المسلمين، ونظراً إلى الشكوك التي أثارتها، جعلت علماء المسلمين ينكبّون على دراسة كتب الفلاسفة للردّ عليهم بالسلاح الذي يستعملونه، وقد اختلط علم الكلام بفلسفة اليونان، وقد ذكر التفتازاني، في السياق ذاته، أنّه: «لمّا نقلت الفلسفة إلى العربيّة، وخاض فيها الإسلاميّون، حاولوا الردّ على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة، فخلطوا بالكلام كثيراً من الفلسفة، حتى كاد لا يتميز عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيّات»[11]، يعني: بعض النصوص من آيات وأحاديث، وقد ورد هذا الكلام في معرض الحديث عن سلبيّات علم الكلام، والأضرار التي حصلت نتيجة اختلاطه بالفلسفة، ولكن تبقى الحدود فاصلة بين علم الكلام والفلسفة، حيث يختلف علم الكلام عن الفلسفة في أنّ الكلام خاصّ بدين معيّن، فهو جدل يدور حول أصول دين بعينه، لكنّ الفلسفة تبحث عن الحقيقة على وجه العموم، ومن حيث المنهج نجد أنّ الكلام يبدأ من مسلّمات عقائديّة يفترض صحّتها؛ أي: أنّ المتكلم يبدأ من قاعدة معترف بها، ثمّ يتلمّس الطرق التي تؤدّي إلى إثبات هذه القاعدة. أمّا الفيلسوف، فإنّه يبدأ من درجة الصفر؛ أي: من قواعد المنطق الأساسيّة والمقدّمات البديهيّة إلى النتائج، مستخدماً منهجاً عقليّاً صرفاً.[12] على الرغم من هذه التفرقة، فإنّ بعضهم يجعل الكلام والفلسفة متطابقين ومتّحدين في الكثير من الموضوعات النظريّة والعقلانيّة المحضة.

ب- علم الكلام والسياسة:

علم الكلام القديم سجال، وحجج، ومحاجّة، ورفض، وقبول، والدافع، في الحقيقة، دافع سياسي، فالأشعريّة أصبحت النظريّة السياسيّة للدولة الأمويّة السُّنيَّة، والإماميّة أصبحت نظريّة المقاومة، والفرق الكلاميّة، في حقيقة الأمر، هي الأحزاب السياسيّة، والكلام ما هو إلّا الإيديولوجيّة السياسيّة للفرق.

ج- علم الكلام والعلوم الشرعيّة:

يمكن ملاحظة علاقة متبادلة بين علم الكلام وبعض العلوم، وتأثير علم الكلام في هذه العلوم، سواء كان تأثيره مباشراً أو غير مباشر، وهذه العلوم، أيضاً، تؤثّر في علم الكلام، وبما أنّه انبثق بهدف الدفاع

11- التفتازاني، سعد الدين، العقائد النسفيّة، نقلاً عن: تحريم النظر في كتب الكلام، للإمام موفق الدين قدامة المقدسي، تحقيق: محمّد سعيد دمشقيّة، دار عالم الكتب، الرياض، ط 1، 1410هـ/1990م، ص 20.

12- أبو ريان، محمّد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام: المقدمتان - علم الكلام - الفلسفة الإسلاميّة، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، بيروت، 1976م، ص 132.

العقلاني عن الدين، فضلاً عن طابعه العقلي المحض، فإنّه اشتمل على أدلّة ذات طابع نقلي، ما يجعله بحاجة إلى فهم الكتاب والسنّة، ومنه كانت حاجته إلى علم التفسير، والحديث، والفقه، وأصوله، وعلم الأخلاق.

د- علم الكلام والتفسير:

إنّ فهم محتوى بعض الآيات والأحاديث يستند إلى المباحث الكلاميّة، فإنّ فهم الآيات القرآنيّة، التي تتناول صفات الباري عزّ وجلّ، ومسائل الجبر، والاختيار، والشرّ، والخير، وغيرها، وكذا الأمر بالنسبة إلى «هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن»، فهم وتحليل الأوّل والظاهر والآخر والباطن، يستلزم عقليّة ونظريّة في إطار علم الكلام.[13]

هـ- علم الكلام والحديث:

يُعدّ تفسير القرآن الكريم، وجانب من علم الحديث، لاسيّما ما يتعلق بالأحاديث، وشرحها، وفهمها، جزءاً من علم الكلام، فعلم الحديث، باعتباره علماً، يُعنى بتمحيص الأحاديث التي بين أيدينا، وهل صدرت، فعلاً، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أم لا؟[14]

و- علم الكلام وأصول الفقه:

بَدِيهيٌّ أن نجد في علم أصول الفقه مباحث كلاميّة ساعدت الفقهاء في استنباط الأحكام، وقد دعا الكثير من الباحثين إلى تجريد علم أصول الفقه من المباحث الكلاميّة، وهذا يعكس تلك العلاقة التفاعليّة بين العلمين منذ ظهور علم أصول الفقه.

ز- علم الكلام وعلم الأخلاق:

إذا اعتبرنا الأخلاق النظريّة جزءاً من علم الأخلاق، فستتضح حاجة علم الكلام إلى مثل هذا العلم، وإنّ مباحث الحسن والقبح من أهمّ قضايا علم الكلام، وهي الأساس للكثير من المسائل في هذا العلم، وهكذا فإنّ علم الكلام يتوقّف، في الكثير من قضاياه، على علم الأخلاق النظريّة.[15]

13- حنفي، حسن، حوار في مجلة (قضايا إسلاميّة معاصرة)، العدد 14 - السنة (1422هـ/2001م)، ص 41.

14- المرجع نفسه، حوار مع صادق لاريجاني ومصطفى مليكان، ص 74-75.

15- المرجع نفسه، ص 74 - 75.

ح- علم الكلام والعلوم الإنسانيّة:

ممّا لا شكّ فيه أنّ علم الكلام، في ثوبه المعاصر، وليد العلوم الإنسانيّة، والفلسفة الحديثة، فما عرفته الحضارة الغربيّة من تحوّل فكريّ، وثقافي، وسياسي، واجتماعي، واقتصادي، انعكس على العالم العربي والإسلامي، ومن الطبيعي أن يترك ذلك الانتشار الواسع والكبير للعلوم، في القرون الأخيرة، أثراً عميقاً في المعتقدات الدينيّة، فمنذ عصر النهضة وما بعدها، تضاعفت معلوماتنا العلميّة حول العالم في مجالات عديدة، مثل: علم الفلك، وعلم الأرض، وعلم الأحياء، والكيمياء، والفيزياء، وبصورة عامّة كلّ العلوم الإنسانيّة، وغيرها. ومن ناحية أخرى، اكتسبت مناهج الدراسات والتحقيقات الدينيّة اهتماماً بارزاً في أواخر هذا القرن، ولكن من ناحية ثالثة، أوجدت هذه العلوم نفسها شبهات وتساؤلات جديدة، خصوصاً بعد وجود وانتشار علم الاجتماع، وعلم النفس، والتاريخ، والظاهراتيّة، وفلسفة الدين...وغيرها.[16]

ط- علم الكلام والفلسفة الحديثة:

يرتبط علم الكلام الجديد بالعلوم الأخرى من جهتين: فهو من جهة، يأخذ الإشكالات الجديدة حول الدين، ومن جهة ثانية، يستفيد، في بعض المواقع، من أصولها ومناهجها في الردّ على هذه الشبهات. ويوجد ارتباط وثيق بين الكلام الجديد والفلسفات الحديثة، ولاسيّما الفلسفات المضافة، مثل: فلسفة الأخلاق، وفلسفة العلم، وفلسفة السياسة، وفلسفة الحقوق، وفلسفة اللغة، ويعود سبب هذا الارتباط إلى الشبهات الأساسيّة الموجّهة في هذه الفلسفات إلى كلّ من: الأخلاق الدينيّة، ومباحث علم المعرفة الدينيّة، والسياسيّة الدينيّة، والحقوق الدينيّة، ووجود معانٍ للقضايا الدينيّة، كما ضيّقت، إلى حدّ كبير، الساحة على الوحي والنصوص الدينيّة.

كما يرتبط علم الكلام الجديد بالأديان الأخرى؛ لأنّ أكثر الانتقادات والشبهات المعاصرة اتّجهت نحو المسيحيّة واليهوديّة في الغرب، ثمّ انتقلت إلى بلادنا بصورة واسعة، مع أنّ هذه الانتقادات الأصوليّة مشتركة بين الأديان جميعها، والإسلام واحد منها. ومع ذلك، فإنّ معرفة المتكلّم الإسلامي بهذه الأديان تعطيه القدرة على إدراك ما يأتي: أهذه الشبهة موجّهة إلى الدين كلّه، أم تعود إلى سبب النقص المشاهد في دين ما؟ وبما أنّ الدين الإسلامي خالٍ من أيّ نقص، وهو الدين الكامل، فلا تصدق هذه الشبهات عليه مطلقاً.[17]

1-4- تعريف علم الكلام:

شَهِد علم الكلام تراجعاً وانحساراً لأسباب عديدة، ما جعل بعض المفكرين، في القرن التاسع عشر، ينادون بتجديد علم الكلام، لينهض برسالته كما كان، وكانت أولى هذه الصيحات مع مجموعة من المفكّرين

16- مجلة المنطلق، العدد 119، ص 50.

17- المرجع نفسه، ص 51 - 52.

المصلحين روّاد الحركة السلفيّة، ومنهم: جمال الدين الأفغاني، ومحمّد عبده، ومحمّد إقبال، وآخرون منهم الشهيد مطهري، وهبة الدين الحسيني (الشهرستاني)، وغيرهم، على امتداد الوطن الإسلامي.

ونظراً للتحدّيات الجديدة المعقدة، فإنّ علم الكلام، الذي اُصطُلح عليه بالجديد، اتّخذ مفهوماً موسّعاً له، وأُضيفت إليه موضوعات ومسائل جديدة عولجت بمناهج وأدوات حديثة، غير أنّ دعاة تجديد علم الكلام ما زالت تُجابِههم تساؤلات تقتضي الحسم فيها، لعلّ أبرزها ما يتعلّق بنطاق تجدّد علم الكلام، وقد ظهرت اتجاهات تجديديّة لعلم الكلام أسهمت في وضع ملامح علم كلام جديد.

يُعرِّف ابن خلدون علم الكلام بأنّه: «علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانيّة بالأدلة العقليّة، والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف، وعقائد أهل السنّة».[18]

ويُعرِّفه الفارابي: بأنّه صناعة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرّح بها واضع الملّة، وتزييف كلّ ما خالفها بالأقاويل[19]، ويعرّف القاضي عضد الدين الأيجي علم الكلام، في كتابه المواقف: «هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينيّة بإيراد الحجج ودفع الشبه»[20]، ويعرّفه سعد الدين التفتازاني في شرح المقاصد: «إنّه العلم بالقواعد الشرعيّة الاعتقاديّة المكتسبة من أدلّتها اليقينيّة».[21]

نستنتج، من خلال هذه التعاريف، أنّ الرابط الذي يجمع بينها هو الدفاع عن العقيدة، عن طريق إقامة الأدلّة والحجج على صحّة المعتقدات الدينيّة، فيتبيّن أنّ علم الكلام ذو طابع دفاعي، وبذلك هو دفاع عن التحدّيات والشّبه التي كانت توجّه إلى العقيدة الإسلاميّة في تلك الفترة الزمنيّة.

1-4-1- دواعي تسمية علم الكلام:

تضاربت الآراء حول دواعي تسمية علم الكلام، فذكر الدكتور محمّد الزحيلي في كتابه (**مرجع العلوم الإسلاميّة**) ما يأتي: «...ولعلّه سُمِّي بعلم الكلام؛ لأنّ مسألة كلام الله تعالى كانت أهمّ المسائل المعروضة في ذلك العصر، والتي عرفت بخلق القرآن»[22]، في حين ذكر الشيخ محمّد عبده في (**رسالة التوحيد**)، مرجّحاً ما بدا له في سبب تسمية الكلام: «وقد يُسمّى علم الكلام إمّا لأنّ أشهر مسألة وقع فيها الخلاف، بين علماء القرون الأولى، هي أنّ كلام الله المتلوّ حادث أو قديم، وإمّا لأنّ مبناه الدليل العقلي، وأثره يظهر من كلّ متكلّم

18- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدّمة، مرجع سابق، ص 23.

19- أبو ريان، محمّد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام: المقدّمتان - علم الكلام - الفلسفة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص 131.

20- الأيجي، عضد الدين، شرح المواقف، منشورات الرضا، ج 1، ص 34 - 35.

21- التفتازاني، سعد الدين، شرح المقاصد، م 1، ص 5.

22- الزحيلي، محمّد، مرجع العلوم الإسلاميّة، ص 326.

في كلامه، وقلّما يرجع فيه إلى النقل، اللّهمّ إلّا بعد تقرير الأصول الأولى، ثمّ الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها، وإن كان أصلاً لما يأتي بعدها».[23]

وربّما سُمّي «كلاماً»؛ لأنّه يورّث قدرة على الكلام في الشرعيّات، كالمنطق في الفلسفيّات، أو لأنّه كثر فيه الكلام مع المخالفين ممّا لم يكثر في غيره، أو لأنّه بقوّة أدلّته كأنّه صار «هو الكلام» دون ما عداه، وإمّا لكون الكلام مادّته، وسلاحه، والمعبّر عن مقاصده، وأغراضه، وجدليّاته، أو لأنّ المتكلّمين أرادوا مقابلة الفلاسفة في تسميتهم فنّاً من فنون علمهم بالمنطق، والمنطق والكلام مترادفان. ويشير الشهرستاني صاحب (الملل والنحل، ج1، ص36) إلى أنّ لفظ الكلام أصبح اصطلاحاً فنيّاً في عهد المأمون، فأصبح لفظ الكلام مرادفاً للفظ الجدل.[24]

ولفظ الكلام الوارد في بعض الآيات الكريمة[25] لا يحتمل معنى زائداً على صورة الكلام المتلفّظ بها، فلم يكن يتضمّن أيّ إشارة إلى المناقشة والجدل الدائر حول مسائل الاعتقاد، ومهما تعدّدت أسباب التسمية ودواعيها، يبقى لهذا العلم مكانته الأساسيّة، وأهميّته القصوى، لاسيّما أنّه يتعلّق بالإيمان والعقيدة، وأساس الإسلام، ويعدّ الدكتور محمد الزحيلي هذا العلم من أهمّ العلوم الشرعيّة على الإطلاق، وقد سمّاه كثير من العلماء بعلم أصول الدين، كما يُسمّى هذا العلم بعلم التوحيد، وعلم الكلام، وعلم العقيدة، والفقه الأكبر والإيمان، وهو يشبه علم اللّاهوت عند النصارى، كما قال فريد وجدي في (**دائرة المعارف**).

1-4-2- بواعث نشأته:

فيما يتعلق ببواعث نشأة علم الكلام، أغلب الباحثين يرجعها إلى العوامل السياسيّة والمؤثرات الخارجيّة، وفي هذا الصدد، نعرض للعوامل التي أسهمت في نشأته، والتي أرجعها محمّد علي أبو ريان، في مؤلفه في الفكر الفلسفي الإسلامي، إلى ثلاثة عوامل:

أوّلها: الغزو الثقافي الأجنبي، أو الثورة الثقافيّة المضادّة:

لقد فتح المسلمون بلداناً ذات ثقافات عريقة، مثل فارس، والشام، ومصر، وكان الفرس يؤمنون بالزرادشتيّة، والمانويّة، والمزدكيّة، كما انتشرت اليهوديّة والمسيحيّة في الشام ومصر (وكانتا من أملاك

23- عبده، محمّد، رسالة التوحيد، تحقيق: محمّد أبو ريان، دار المعارف، ص 21.

24- أبو ريان، محمّد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، مرجع سابق، ص 129.

25- في سورة الفتح، الآية 15، يقول الله عز وجل: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذَلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلا قَلِيلاً} ثمّ يحرفونه، والمراد هنا التوراة، وفي سورة التوبة، الآية 6، يقول الله عز وجل: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ} لفظ «كلام» يراد به القرآن، وفي سورة الأعراف، الآية 144، يقول الله عز وجل: {قالَ يا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النّاس برسالاتي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ} [الأعرَاف: 144]، والكلام هنا يقصد به المشافهة.

البيزنطيين المسيحيين). وعندما أحسّت هذه الشعوب المغلوبة بعجزها عن مقاومة جيوش المسلمين، انبرى مثقفوها ليشنُّوا حملة ثقافيّة مضادّة على العقيدة الإسلاميّة للتشكيك فيها، مستهدفين إضعاف الروح الإسلاميّة وتفتيت وحدة المسلمين. وحينما احتكّ المسلمون بالمسيحيين الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم، وبأصحاب المقالات من الملحدين، والزنادقة، والثنويّة، اضطروا إلى التسلّح بالفلسفة، والمنطق الأرسطي، لمواجهة هؤلاء الخصوم الذين حذقوا فنّ الجدل الديني، فكان هذا سبباً كافياً لنشأة علم الكلام.[26]

ثانيها: العامل الثاني الذي أسهم في نشأة علم الكلام، هو الخلافات السياسيّة حول الإمامة، وكيف أنّها أدّت إلى ظهور فرق دينيّة تتجادل حول العقيدة الإسلاميّة.

ثالثها: الآيات المتشابهات، وهي آيات قرآنيّة مشكلة، مبهمة المعنى يعارض بعضها بعضها الآخر[27]، أو يعارض ظاهر بعضها بعضها الآخر، الأمر الذي أدّى إلى ظهور أسلوب التأويل الذي استخدمته الفرق الإسلاميّة للتدليل على صحّة مواقفها.

ويعدّ ابن خلدون الآيات المتشابهات الأصلَ في نشأة علم الكلام، ويرجع البحث في ذات الله، وصفاته، ورؤيته، سواء بالقلب أم بالبصيرة، وكذلك كلام الله، من حيث كونه قديماً أو مخلوقاً، ومسائل التوحيد بصفة عامّة، يرجع هذا كلّه إلى ما دار من جدال حول تفسير الآيات المتشابهات.[28]

يتّضح ممّا سبق أنّ ظهور علم الكلام ارتبط بأحداث سياسيّة، وتطوّرات اجتماعيّة، عرفتها الساحة الإسلاميّة آنذاك، ومن ثمّ كان بروزه انطلاقاً من أسباب سياسيّة (الخلافة، والقدر)، وعوامل خارجيّة (تجلّت في الانفتاح على ثقافات وديانات أخرى).

1-4-3- موضوعه وأغراضه:

إنّ علم الكلام هو العقائد الدينيّة الإيمانيّة، من حيث يستدلّ عليها بالبراهين العقليّة، وأهمّها التوحيد، وما يتّصل به من البحث في قدم الصانع، وحدوث العالم، والصفات الإلهيّة، والفعل الإلهي، وما يتّصل به من عدالة إلهيّة، ثمّ ما يتعلق بهذه المسألة من مشكلات الجبر، والاختيار، والصلاح، والأصلح، واللطف، والتولّد، والكسب، والأحوال.[29]

26- أبو ريان، محمّد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، مرجع سابق، ص 136.

27- والصواب: يعارض ظاهر بعضها بعضها الآخر.

28- ابن خلدون، المقدّمة، مرجع سابق، ص 106.

29- المرجع نفسه، ص 141.

ومن خلال التعاريف التي أدرجناها لعلم الكلام، يتبيّن لنا الدور الذي لعبه هذا العلم في تثبيت كيان الأمّة الإسلاميّة، والذود عن العقيدة من الشبهات والانحرافات، ونجمل أغراض هذا العلم فيما يأتي:

- صدّ الغزو الفكري والعقدي الذي تعرّضت له العقيدة الإسلاميّة.

- تأسيس رؤية إسلاميّة بالحجّة العقليّة المستندة إلى الوحي.

- الردّ على الشبهات المشار إليها من قبل أصحاب الأديان والثقافات القديمة، وتفنيدها، وتزييفها بالحجّة العقليّة.

وعن أهميّة هذا العلم، يقول عبد المجيد النجّار: «لقد أسهم (علم الكلام) في تثبيت إيديولوجّية إسلاميّة، حفظت المسار الحضاري العام وفق معطيات الوحي».[30] وقد شبّه حسن حنفي علم الكلام، كعلم العقائد، بإيديولوجيّة العصر التي تعطي الناس تصوّراتهم للعالم، وتمدّهم بأنماط السلوك، فالعقائد وسيلة لتحقيق الصلاح على الأرض، وليست غاية في ذاتها.[31]

1-4-4- منهجه:

لمّا كانت هذه التحدّيات المطروحة بهذه الضخامة والخطورة على الدين، كان لزاماً أن تُواجه بمنهج وأسلوب يناسب حجج هذه التحدّيات.

وقد استعمل علماء الكلام الاستدلال النقلي، وكان أوّل الأساليب التي وظّفت في مواجهة الشبهات، حيث يتّخذ من نصوص القرآن والحديث شواهد على الآراء النقديّة، في الحوار الدائر بين الفرق الإسلاميّة، وقد ظلّ هذا الاستدلال النقلي مواكباً للفكر الكلامي طيلة مسيرته في الحوار الداخلي بين المسلمين.[32]

فإضافة إلى الأسلوب النقلي، وظّف المتكلّمون المنهج العقلي، فلمّا كثرت تحدّيات أهل الأديان والمذاهب، في القرن الثاني، نشأ لدى المتكلّمين الأسلوب العقلي في الاحتجاج، ذلك أنّ هذه التحدّيات كان أصلها من النصارى والمجوس المتمرّسين بالفلسفة اليونانيّة، ومنطقها الصوري. فاستخدموا آليّات هذه

30- النجار، عبد المجيد، واقعيّة المنهج الكلامي ودورها في مواجهة التحدّيات الفلسفيّة المعاصرة، مجلة المسلم المعاصر، السنة 15، العدد 60، (أيار/ مايو - حزيران/يونيو - تموز/يوليو)1991م - (شوال -ذو القعدة -ذو الحجة)1411هـ، ص 152.

31- حنفي، حسن، تاريخيّة علم الكلام وتجديده، مجلة الوعي المعاصر، العدد 11/10/ السنة 2003/3م.

32- المرجع نفسه، ص 158.

الفلسفة للاحتجاج نصرةً لمعتقداتهم، ولذلك بادر المعتزلة باستعمال الحجّة العقليّة في مقابلة هذا التحدّي، وأصبح هذا الأسلوبُ الأسلوبَ الغالب على الفكر الكلامي.[33]

1-4-5- وظائفه:

في معرض حديث محمّد مجتهد شبستري[34] عن وظائف علم الكلام الجديد، يتوقّف عند الوظائف والمهمّات التي كانت منوطةً بعلم الكلام القديم، وقد حصر هذه الوظائف في ثلاثٍ نعرضها كما يأتي:

الوظيفة الأولى: تبيينُ العقائد:

يبيّن علم الكلام الأصول العقيديّة والإيمانيّة للإسلام، ويحدّد أيّ نوع من الأصول هي، وقد ظهرت الحاجة إلى هذا الإيضاح عندما واجه المسلمون الأديان والفلسفات الدخيلة.

الوظيفة الثانية: إثبات العقائد:

إنّ وظيفة الإنسان المؤمن عبارة عن تحصيل الأصول العقيديّة المطابقة للواقع؛ أي: (العقائد الحقّ)، والاعتقاد بها، كما أنّ وظيفة المتكلّم أن يفصل هذه (العقائد الحقّ) عن العقائد الباطلة التي لا تتطابق مع الواقع، ويثبت (العقائد الحق).

الوظيفة الثالثة: الإجابة عن الشبهات:

الإجابة عن الشبهات التي كانت تأتي من خارج الدين، فعلى سبيل المثال، كانت هناك فئة تنكر نبوّة محمّد صلى الله عليه وسلم، وتثير الشبهات حول القرآن، وقد كان المتكلّمون يتصدّون لذلك.

2- تجديد علم الكلام في الساحتين السنّيّة والشّيعيّة:

2-1- علم الكلام الجديد:

يُعدّ علم الكلام الجديد امتداداً لعلم الكلام القديم، فالتعريف والموضوع والأهداف ذاتها التي كانت لهذا الأخير، تصدق اليوم على علم الكلام الجديد، فما كان من توسعة في المفهوم جاء نتيجة لما ظهر من تحدّيات، ومستجدات، وشبهات لم تكن في الماضي.

33- المرجع نفسه، ص 158.

34- شبستري، محمّد مجتهد، مراجعة نقدية للفكر الكلامي، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد 14، 2001م، انظر الصفحات: 82 - 83 - 84.

ومن التعاريف التي أُعطيت لعلم الكلام الجديد ما ذكره محمّد عمارة من قول عن علم الكلام الجديد، في حوار أجرته معه مجلة قضايا إسلاميّة معاصرة: «هو ذاك العلم الذي يخلّص وينقّي العقيدة الإسلاميّة ـأصول الدين- من شغب المتكلّمين القدماء الذي كان مبعثه التعصّب المذهبي أكثر من الاختلاف الحقيقي، وهو، بذلك، القادر على اكتشاف المساحة الواسعة للأرض الفكريّة المشتركة بين مذاهب وتيّارات وفرق علم الكلام الإسلامي».[35]

ونجد من التعاريف ما ورد في مقالة الباحث همايون همتي: «الكلام علم عقلاني لحفظ شريعة من الشرائع، وتعيين مصداق الحقّ والباطل على مستوى الأديان، وتبيين المفاهيم الدقيقة لتلك الشريعة، وتوضيح تكامل المعرفة الدينيّة، بمؤازرة التحليل اللغوي والأدلة المنطقيّة المتَّكِئة على البديهيّات، والمشهورات، واليقينيّات العقليّة».[36]

وثمّة من أعطى مدلولاً أوسع لمعنى علم الكلام الجديد، وحسن حنفي من هؤلاء، حيث عَدَّ علم الكلام تعبيراً عمّا تريده الحركة الإصلاحيّة في كلّ العالم الإسلامي، وكلّ حركات التحرّر الوطني، فإذا كان علم الكلام قديماً انبرى للدفاع عن العقيدة، فعلم الكلام، حاليّاً، هو للدفاع عن المسلمين.

ممّا لاشك فيه أنّ هذه التعاريف، وما تضمّنته، تنعكس بالضرورة على وظائف هذا العلم، وأهدافه، ومواضيعه، ومناهجه، ومقاصده، وذلك ما سنتناوله في الفقرات التالية:

2-2- تاريخ ظهور مصطلح علم الكلام الجديد:

التعاريف التي أدرجناها لمفكّرين معاصرين تدلّ على أنّنا نتحدّث عن مصطلح معاصر، أو تسمية معاصرة، الشيء الذي يدفعنا إلى التساؤل عن بدايات نشأة هذه التسمية لعلم كان قائماً منذ قرون، نظراً لما شهده العلم من تحوّلات على الصعد كافة، فضلاً عن معارف أوروبة وعلومها الجديدة، التي عملت على تأجيج قلق عقائدي، ومهّدت السبيل لبعث الروح في علم الكلام وإحيائه من جديد.

لقد ظهر هذا المصطلح، للمرّة الأولى، عنواناً لكتاب العالم الهندي المسلم **شبلي النعماني** (1857م-1914م) الذي كان من أوائل الداعين إلى تجديد علم الكلام، بُغْية الردّ على الشبهات الحديثة، والدفاع عن الشريعة.

35- مجلة قضايا إسلاميّة معاصرة، العددان 16-17، (1422هـ/2001م)، حوار مع محمّد عمارة.

36- همتي، همايون، مدخل إلى مبادئ علم الكلام الجديد، ترجمة: حسين صفي الدين، مجلة المنطلق، العدد 119، خريف شتاء 1997 - 1998م، ص 58 - 59.

وفي عام (1964م)، أوضح العالم الهندي المسلم **وحيد الدين خان**، في مقدّمة كتابه (**الإسلام يتحدّى**) المبرّرات التي دفعته لتأليف كتابه هذا، فشدّد على ضرورة التحرّر من منهج علم الكلام القديم؛ لأنّ طريقة الكلام وأسلوبه قد تغيّرا بتغيّر الزمن؛ لذلك علينا أن نأتي بعلم كلام جديد لمواجهة تحدّي العصر الحديث.[37]

2-3- أزمنة علم الكلام الجديد:

ولكي تتّضح الصيرورة التي قطعها علم الكلام، سأعرض أزمنة هي عبارة عن السمات التي اتّسم بها علم الكلام خلال تطوّره إلى الآن، وما يقصد بالزمن هنا تلك الفترة التي تتّسم الآثار الكلاميّة فيها بسمات مشتركة تتميّز بها من الأعمال السابقة واللّاحقة.

أ- إحياء علم الكلام أو تأسيس المعتقد على العقل والعلم:

يمكن أن نؤرّخ لهذه الفترة من النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي حتى نهاية الربع الأوّل من القرن العشرين الميلادي، ومن مميزاتها: الدعوة لإحياء علم الكلام، وتطهير وجدان الأمّة من الخرافات، وتأكيد دور العقل والعلم بوصفهما رافدين رئيسيين لتغذية المعتقد، ومن أعلام هذه الفترة: جمال الدين الأفغاني، وتلميذه محمّد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وشبلي النعماني، ومحمّد الطاهر بن عاشور، وهبة الدين الحسيني (الشهرستاني) (عراقي ت 1967م).

ب- التأسيس الفلسفي لعلم الكلام:

في هذه الفترة، انتقل علم الكلام من طور الإحياء إلى طور التجديد الذي يستجيب فيه لمتطلّبات الحياة الجديدة، ومن روّادها وأعلامها: محمّد إقبال صاحب الكتاب الشهير (**تجديد الفكر الديني في الإسلام**)، ومالك بن نبي (**الظاهرة القرآنيّة**)، ونجد كذلك لمحمّد عبد الله دراز كتاب (**الدين بحوث ممهّدة لدراسة تاريخ الأديان**)، ونجد كتاب (**أصول الفلسفة والمنهج الواقعي**) للعلّامة محمّد حسين الطباطبائي، والتعليقات عليه لتلميذه الشيخ مرتضى مطهري، وكتاب (**فلسفتنا**) لمحمّد باقر الصدر.

ج- التأسيس المنهجي لعلم الكلام:

تبدأ هذه الفترة التالية لتطوّر علم الكلام الجديد بصدور كتاب (**الأسس المنطقيّة للاستقراء**)، وتستمرّ حتى اليوم. ومميّزات هذه الفترة: حدوث منعطف منهجي في مسار حركة علم الكلام، وللمرّة

37- الرفاعي، عبد الجبار، علم الكلام الجديد تمهيد تاريخي، مجلة الحياة الطيبة، العدد التاسع، ربيع 1423هـ/2002م، ص 235 - 236، بتصرّف.

الأولى يتحرّر التفكير الإسلامي من قوالب المنطق الأرسطي، ويستند إلى منهج الاستقراء القائم على حساب الاحتمالات.[38]

من الملاحظات الموجّهة لعلم الكلام الكلاسيكي، تأثّره بالمنطق الأرسطي في الاستدلال على قضايا العقيدة، ومن هذا المنطلق يأتي مؤلَّف محمّد باقر الصدر المشار إليه أعلاه، ليتجاوز المنهج الأرسطي، ويقترح المنهج الاستقرائي القائم على تتبّع الجزئيّات لاستنباط أمر كلّي منها في المجال العقائدي، وقد استند الصدر على هذا المنهج؛ لأنّ هذا النوع من الاستقراء -في نظره- يفضي إلى (الظنّ الاطمئناني) الذي يعود إلى حساب الاحتمالات؛ فهو منحى من العلّة المستنبطة.

2-4- موضوعات أو مسائل الكلام الجديد:

بما أنّ علم الكلام كان دائماً مواكباً للقضايا المطروحة في عصره، فهو لم يجمد على تناول مواضيع محدّدة بعينها، ومن ثمّ، علم الكلام الجديد يتناول قضايا جديدة، إضافة إلى تلك المتعلّقة بالأمور الاعتقاديّة، وعن هذه الواقعيّة لعلم الكلام من حيث موضوعه. يقول الباحث أحمد قراملكي: «إنّ الكلام التقليدي غير محدود، بلحاظ هويّته التاريخيّة، بنوع خاص من القضايا، فالادعاء بأنّ المتكلمين لم يهتمّوا إلّا بالقضايا المتعلّقة بصفات البارئ، وأفعاله، والنبوّة الخاصّة والعامّة والمعاد... إنّما يصدق على مرحلة تاريخيّة محدّدة، ولا ينطبق إلّا على مشارب ومذاهب كلاميّة معيّنة. إنّ دراسة الأفكار والآراء الكلاميّة الرائجة تاريخيّاً في أوساط الفرق الكلاميّة المختلفة، إنّما تضعنا أمام حقيقة تاريخيّة مفادها أنّ كلّ فرقة كلاميّة كانت تشتغل، في كلّ مرحلة تاريخيّة، بنمط خاص من القضايا الدينيّة، بما فيها القضايا التوصيفيّة والأخلاقيّة، طبقاً لما يتّصل بالوضعيّة السياسيّة الفكريّة السائدة آنذاك، ففي عصر ما نلاحظ أنّ الأولويّة كانت معطاة للبحث في القضايا الدينيّة الحاكية عن الفسق، بينما نلاحظ، في عصر آخر، أنّ البحث كان ينصبّ على القضايا الناظرة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».[39]

يبدو أنّ كلام الباحث قراملكي غير مقنع؛ لأنّ محتوى علم الكلام الكلاسيكي لم يعد مجدياً في هذا العصر، والقضايا الاعتقاديّة لم تعد مهمّة كما كانت في القديم، بالنسبة إلى الإنسان المعاصر الذي تواجهه يوميّاً تحدّيات تحتاج إلى إجابات آنيّة، لذلك، الكلام الجديد في عصرنا الحاضر لا يشتمل فحسب على القضايا الاعتقاديّة، بل يتعدّى ذلك إلى القضايا الأخلاقيّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة، والسياسيّة، «ومن هذه الموضوعات المطروحة في العصر الراهن، من قبيل الأسلحة النوويّة، والبيئة الإنسانيّة، واللّامساواة الاقتصاديّة بين الشمال والجنوب، وحقوق الإنسان، والقضايا الاجتماعيّة، والعمل، وقضيّة البطالة، والنزاع

38- المرجع نفسه، بتصرّف، ص 237 - 238.

39- قراملكي، أحمد، تحليل مفهوم التجدد في علم الكلام، ترجمة: حبيب فياض، مجلة المنطلق، العدد 119، خريف شتاء 1997 - 1998م، ص 21.

العرقي، والزواج، والطلاق، والإجهاض، والميل الجنسي نحو الجنس نفسه، وغيرها، ولذلك كلّ من أراد الدفاع عن الدين، في عصرنا الحاضر، لا يستطيع أن يكرّر كليّات علم كلام القدماء، بل ينبغي أن يعرف موقع الدين ومكانه في هذا العصر، ويعلم كيف ومن أين يتّجه الخطر نحوه».[40]

2-5- منهجه:

تأسيساً على ما سبق ذكره، حول حاجة علم الكلام إلى موضوعات جديدة، فإنّه كذلك يحتاج إلى مناهج متعدّدة، وليس إلى منهج واحد، كما كان في عهد المتكلّم التقليدي، أمّا المتكلّم الجديد، فنتيجة تطوّر المعارف والعلوم، يستطيع «تبيين وإثبات حقيقة دينيّة، من خلال الاستناد إلى مرتكز تاريخي، أو عن طريق الاستناد إلى علم الظواهر، كما يستطيع، في سبيل إثبات الحقائق الدينيّة، اعتماد المناهج الهرمينوطيقيّة (تفسير النصوص والعبارات)، أو المناهج السيميائيّة (علم الإشارات أو علم العلامات)، أو الأبحاث التجريبيّة، أو التحليلات البرهانيّة».[41]

إضافة إلى هذه المناهج، يمكن الاستعانة بأساليب ومرتكزات أخرى، بحسب طبيعة السؤال والشُّبهة المطروحة، فالمتكلّم المعاصر يستطيع استعمال «الأسلوب العقلي والتجريبي والتاريخي، وأن يجعلها في خدمة الدين، لكن تبقى الروح الحاكمة في علم الكلام الطريقة العقلانيّة، فيسعى، قدر الإمكان، إلى ردّ وقبول أيّ قضيّة بالمنهج الاستدلالي، كما لا يخفى أنّه في الأسئلة النظريّة والعمليّة التي تدور حول الدين، وهي إلى حدّ ما (داخل دينيّة)، يمكننا الاستفادة من الوحي والنصوص الدينيّة، وتقديم تصوّر جديد يحلّ لنا المشكلات النظريّة والعمليّة المواجهة للدين، ونستطيع الاستعانة بالعلوم الجديدة والمناهج الحديثة في الدراسات، والتحقيقات الدينيّة، واستخدامها للجواب عن بعض التساؤلات والشبهات».[42]

2-6- وظائفه:

ومن خلال تعاريف علم الكلام القديم والجديد، نجد أنّ هذه التعاريف تتضمّن وظائف هذا العلم، وفوائده، وغاياته، ونلاحظ أنّ هذه الوظائف ما تزال مشتركة وقائمة، مع إضافة مهامّ جديدة بالنسبة إلى علم الكلام الجديد، نظراً إلى تغيّر الظروف الفكريّة والسياسيّة، وبروز أسئلة مرتبطة بالعصر الحالي.

لقد كان لعلم الكلام ثلاث مهمّات أساسيّة عند المسلمين، كما أشرنا آنفاً: **الوظيفة الأولى:** عرض الأصول العقيديّة والإيمانيّة للإسلام، والكشف عنها، **والوظيفة الثانية:** إثبات العقائد، **والثالثة:** هي الردّ

40- كاشفي، محمّد رضا، فلسفة الدين والكلام الجديد، ترجمة: محمّد شمص، مجلة المنطلق، العدد 119، خريف، شتاء 1997 / 1998م، ص 53.

41- المرجع نفسه، ص 19 - 20.

42- المرجع نفسه، ص 55.

على الشبهات، التي ترد ضدّ الدين من خارجه. إضافة إلى هذه المهمّات التي كان يضطلع بها علم الكلام، في صيغته القديمة، ثمّة أسئلة وإشكالات مطروحة على الفكر الإسلامي المعاصر، تحتّم على علم الكلام، في صيغته الجديدة، مسايرتها، وهي أسئلة تهتمّ بالواقع، على اعتبار أنّ الإنسان، في العصر الحالي، دخل مرحلة جديدة من التفكير، ولم يعد أسلوب الإثبات ذا بال، فالإنسان لا يريد إثبات شيء بقدر ما يريد حلّ مشكلة.

ولذلك أكّد أحد المشتغلين بهذا العلم، محمّد مجتهد شبستري، في مؤلّفه[43] «أنّنا نحتاج، اليوم، أيضاً، إلى علم كلام يطرح الله والنبوّة والوحي والمعاد بأسلوب مختلف يشدّ إليه الناس، بحيث يكتسب، في خضمّه، الإنسان والعالم معناهما، وليس هذا، فحسب، وإنّما تتيسر للإنسان به حياة جديدة».[44]

ويمكن تحديد مقاصد الكلام الجديد في وضع نظريّة في الوجود يغلب عليها الطابع الإنساني؛ لأنّ ما تميّز به علم الكلام في التاريخ هو إهماله مبحث الإنسان، وحياته، ودوره، ومشاكله المتجدّدة؛ أي: الارتباط بالحياة العمليّة، وبدلاً من الوجود الطبيعي، أو الميتافيزيقي -كما فعل المتكلّمون القدامى- تنصبّ الجهود على مقاربة الوجود الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي للناس، كما ينبغي أن يقوم به المتكلّمون الجدد.

3- اتجاهات تجديد علم الكلام:

ثمّة دعوات نظريّة ومنهجيّة لتجديد علم الكلام، فمنها ما نحا منحى التجديد على مستوى المنهج، ومنها ما دعا إلى التجديد على مستوى الموضوع، وبعضها الآخر دعا إلى التجديد في علم الكلام في أضلاعه المعرفيّة كافة (مستوى اللغة، الموضوع، المنهج، الأهداف، المسائل)، في حين ناهض بعض علماء السلف فكرة التجديد في أصلها. وحول موضوع التجديد الكلامي برز، عند كلٍّ من السنّة والشيعة، علماء كلام (متكلّمون) في عصرنا الحاضر، كما كان في الماضي، ونُشِرَ العديد من المؤلفات العقائديّة التي طرحت قضايا جديدة، ومحاور جدليّة، ومناهج، وأدلّة خاصّة بكلّ طرف.

3-1- على مستوى المنهج والموضوع:

أ- الشيخ محمّد عبده (رسالة التوحيد):

يصعب أن نُدرج كتاب محمّد عبده (**رسالة التوحيد**) ضمن زاوية التجديد على مستوى المنهج فحسب، بل إنّه تضمّن لغة يسيرة، ومواضيع جديدة عبارة عن تساؤلات أفرزتها الفلسفة الماديّة الوضعيّة. وفيما يأتي، سنعرض لمحتويات الكتاب، ومنهجيّة تناول الشيخ عبده القضايا المطروحة.

43- شبستري، محمّد مجتهد، مراجعة نقديّة للفكر الكلامي، قضايا إسلاميّة معاصرة، ع14، 2001م، ص 82 - 83 - 84، بتصرّف.

44- وينظر كتابه هرمينوطيقا الكتاب والسنّة، ص168-179، وكذا كتاب مدخل إلى علم الكلام الجديد، دار الهادي، ط1، 2000م.

تبدأ هذه الرسالة بتعريف علم الكلام، أو «علم التوحيد»، كعلم يبحث في وجود الله، ووحدانيته، وصفاته، وحقيقة الرسالة النبويّة. كان هذا العلم -كما يشير- معروفاً عند الأمم قبل الإسلام، لكنّهم قلّما كانوا ينحون فيه نحو الدليل العقلي؛ فكان علماؤهم يتذرّعون بالبينات الفائقة للطبيعة، أو الخارجة عنها، بالمعجزات، أو الخرافات، أو الخطابيّات، ولمّا جاء القرآن غيّر ذلك كلّه، فبيّن، بصورة لا تضارع، ما أذن الله لنا، وما أوجب علينا، أن نعلم، لكن لم يطلب التسليم به لمجرّد أنّه جاء بحكاية، بل ادّعى، وبرهن، وحكى مذاهب المخالفين، وردّ عليها بالحجّة، وأقام الدليل العقلي حكماً فاصلاً في إقرار اليقين، وبنى أحكامه الخلقيّة على أسس عقليّة، وهكذا «تآخى العقل والدين لأوّل مرّة في كتاب مقدّس، على لسان نبيّ مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل».[45]

وقد عدَّ العديد من المفكّرين أنّ الشيخ محمّد عبده، في كتابه (**رسالة التوحيد**)، من المجدّدين في علم الكلام، وبذلك عُدَّ من روّاد علم الكلام الجديد، وذكر حسن حنفي، في السياق ذاته، أنّ محمّد عبده بيَّن أن علم الكلام علم تاريخي صرف، نشأ من الأحداث بين الخوارج، والشيعة، والمعتزلة، والسنّة، ومن ثمّ فهو ليس علماً مقدّساً، فهو علم التاريخ، كما نرى أنّه تاريخ الفكر السياسي، وهذا الأمر يقتضي تغيّر علم الكلام مع تغيّر الأحداث التاريخيّة. أمّا أرنست رينان الغربي، فقد عاب علينا تقديس علم الكلام، ناعتاً إيّانا بأنّنا متخلّفون وجاهلون؛ ليبدأ الردّ على رينان وأمثاله. وقد ظهرت أولى معالم الردّ هذا مع الأفغاني، وتابعه محمّد عبده، لاسيّما الجزء الأخير من كتاب التوحيد، حيث عالج عبده، في بعض النقاط، المسائل الآتية: لماذا تقدّم المسلمون؟ لماذا انتشر الإسلام في العالم بسرعة؟ هل الوحي ممكن...؟[46]

وقد تحدّث محمّد عمارة عن رسالة التوحيد، ولاحظ الأسلوب الجديد، الذي عرض به الشيخ محمّد عبده المباحث العقديّة التقليديّة، وكذا المنطق العقلاني، الذي واجه به الشيخ عبده الشبهات التي أثارها المستشرقون. يقول: «لقد حافظت «رسالة التوحيد» على البناء المنطقي لعلم الكلام الإسلامي، فبعد «المقدّمات»، تحدّث عن أقسام العلوم (...)، ثمّ الذات الإلهيّة -واجب الوجوب- وصفاته، وأفعاله، ثمّ عن الإنسان، وأفعاله (...)، ثمّ عن النبوّة والرسالة، وما يتعلّق بها من حاجة البشر إليها، وأعلامها المعجزة (...)، ثمّ عن قضايا عالم الغيب، وبعد إيفاء هذه القضايا العقديّة التقليديّة؛ الله، والعالم، والإنسان، والرسالة، والمعجزات، والوحي، والقرآن، وعالم الغيب، بعد إيفائها حقها، بمنطق جديد، عرضت هذه الرسالة للشبهات المثارة، وخاصّة من قبل العقل الغربي الوضعي والمادي -فردّت عليها- بمنطقها ومناهج أصحابها... وهي رسالة التوحيد، وبذلك

45- فخري، ماجد، تاريخ الفلسفة، وضعه بالإنجليزيّة، ونقله إلى العربيّة: كمال اليازجي، الدار المتحدة للنشر، ص 466 - 467.

46- حوار مع حسن حنفي في مجلة المحجّة، العدد4، 2002م، ص 174.

قد احتفظت بالهيكل الموروث لعلم الكلام؛ عقائد الإسلام وأصوله، ثمّ جدّدت في المنطق العقلاني الذي استخدمته في إبلاغ الدعوة إلى هذه العقائد، وإقامة الحجّة على صدقها، وإزالة الشبهات عنها».[47]

ب- طه عبد الرحمن (أصول الحوار وتجديد علم الكلام):

تحدّث طه عبد الرحمن، في كتابه: (**أصول الحوار وتجديد علم الكلام**) في الفصل الأوّل، عن الخطاب، ومراتب الحواريّة، وشروطها، ومكوّناتها، لينتقل، في الفصل الثاني، إلى الحديث عن المنهج الكلامي: المناظرة، وقد عدَّها علماً له منهج وأصول، وقد أسهمت في إغناء الفكر الإسلامي، كما عَدَّ أنّ عدم الاهتمام بها من قبل الباحثين المعاصرين، جاء نتيجة الفصل التعسّفي بين الفلسفة الإسلاميّة، وأصول الدين، أو علم الكلام، باعتبار أنّ الأولى تتوسّل بالمنطق (علم قوانين العقل)، بينما يتوسّل الثاني بالجدل، فتقع المفاضلة بينهما على أساس ادعاء برهانيّة الفلسفة، وجدليّة الكلام.

في آخر مُؤلَّف طه عبد الرحمن المذكور آنفاً، تحدّث عن الآفاق المستقبليّة للممارسة الكلاميّة، وذكر أنّه يمكن أن يفتح الكلام الإسلامي، أو الممارسة الكلاميّة على المسائل المستجدّة، سواء التي استُحدِثت في ميدان المذاهب الفكريّة، أم تلك التي أنشأها تطوّر العلم الحديث، وتقلّب الأساليب التقنيّة. يقول طه عبد الرحمن: «فإذا تبيّن أنّ (العقلانيّة) الكلاميّة تنبني على مبدأ (الفعل)، و(المفاعلة)، فإنّ علم الكلام، جديداً، يصبح السبيل النافع والجاد لتقويم النزعات الفكريّة، والاختيارات المنهجيّة المستجدّة، والنظر في التغيّرات العميقة التي أحدثها التقدّم العلمي والتقني في مكوّنات المجتمع المسلم...، ذلك أنّ (الكلام الجديد)، بمواجهته للإشكالات المستحدثة، التي يطرحها الخصم طرحاً يعتمد فيه أقوى وسائل الاعتراض والاستدلال، يصبح عاملاً حاسماً في تحديث أدوات المقاربة والتنظير، ودفع مستواها الإجرائي، وقوّتها الإقناعيّة لدى المفكّر المسلم».[48]

وتجدر الإشارة إلى أنّ طه عبد الرحمن قد اقترح، في مؤلّفه، اسماً جديداً لعلم الكلام، وهو (علم المناظرة العقدي). يقول: «إنّنا نرى أنّه أحقّ أن يُدعى (علم المناظرة العقدي) من أن يدعى باسم آخر، فيكون (رجل الكلام)، أو (المتكلّم)، هو من قام بالشروط الآتية: بأن كان: معتقداً (...)، وناظراً (...)، ومحاوراً (...)، كما نعته، أيضاً، باسم «علم التوحيد وعلم الموجود بما هو موجود...».[49]

47- حوار مع محمّد عمارة في مجلة قضايا إسلاميّة معاصرة، العددان 16و17، 2001م.

48- عبد الرحمن، طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000م، ص 157 - 158.

49- المرجع نفسه، ص 70 - 71.

ج- وحيد الدين خان (الإسلام يتحدّى):

يُعدُّ كلٌّ من وحيد الدين خان، في مؤلفه (**الإسلام يتحدّى**) (**مدخل علمي إلى الإيمان**)، ومحمّد إقبال، في كتابه المشهور (**تجديد التفكير الديني في الإسلام**)، من المجدّدين لعلم الكلام في القارّة الهنديّة، وقد شمل التجديد لديهما الأبعاد المعرفيّة لعلم الكلام كافة، مع بقاء هويّته الأصليّة، فعلى مستوى اللغة؛ كانت مسايرة للعصر، أمّا المنهج، فكان حديثاً، حيث استفاد من العلوم المعاصرة، وعلى صعيد الموضوعات والقضايا، التي أثيرت، فقد كانت وليدة تلك اللحظة الراهنة، من قبيل الإلحاد، وإنكار وجود الله، وتأليه المادّة، وشبهات استهدفت بعض تشريعات الدين الإسلامي، وقد تمّ تفنيد ذلك، بما لا يدع مجالاً للشك، عن طريق استعمال السلاح نفسه الذي كان يمتلكه هؤلاء الملاحدة والمشكّكون في وجود الله.

وقد حاول محمّد إقبال، من خلال مؤلّفه آنف الذكر، إضافة إلى ردوده على شبهات الغربيين، تحويل وتفعيل معاني العقيدة إلى معانٍ اجتماعيّة، هدفها إصلاح الواقع الاجتماعي للأمّة، حيث جعل من التوحيد الميتافيزيقي توحيداً قابلاً للتنزيل بوصفه فكرة يمكن تنفيذها على مستوى المساواة، والاتحاد، والحريّة.[50] وهو الأمر ذاته الذي فعله محمّد باقر الصدر في بعض دراساته التي عَدَّ فيها أنّ مطلب إقامة العدل في المجتمع، ووحدة الأمّة، مطلبان مستمدّان من وحدة الله وعدالته.

وفيما يأتي سنعرض للخطوات المنهجيّة لكتاب (الإسلام يتحدّى)، كما عرضها الدكتور عبد الصبور شاهين، في تقديم الطبعة الأولى:

«وقد كان المؤلف منطقيّاً مع عصره إلى أبعد الحدود، فإذا كان أقطاب الإلحاد في الفلسفة الحديثة قد وضعوا لضحاياهم مدخلاً علميّاً إلى الكفر، فلا مناصَ من أن يحاول هو، بحسّه الصادق، ووعيه بحاجة المسلمين، وضعَ مدخل علمي إلى الإيمان، حيث عَدَّ العلم الحديث أساساً لعلم الكلام، أو لعلم توحيدي جديد. ولذلك سوف نجده يعرض (قضيّة معارضي الدين) بكلّ حياد وأمانة، حتى لا يتّهم، من اللحظة الأولى، بمخالفة المنهج العلمي، ثمّ يبدأ في مناقشتها معتمداً، في الأساس، على الإنتاج الفكري الغربي، من باب **{وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا} [يُوسُف: 26]**، مرجئاً مسألة استخدام الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة في آراء الأعداء قبل الأصدقاء».[51] ويستقي وحيد الدين خان أدلّته من الطبيعة، ومن البحوث النفسيّة والتاريخيّة، للاستدلال على ما ظهر بشكل كبير في فترته، مثل ظاهرة الإلحاد، وإنكار وجود الله، وتأليه المادّة، نتيجة الفلسفة الداروينيّة، والفرويديّة، والماركسيّة. كما أنّه تحدّث عن مشكلات الحضارة الحديثة، كمشكلة المرأة،

50- إقبال، محمّد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 178، نقلاً عن يحيى محمّد، في مقاله: علم الكلام والكلام الجديد، مجلة قضايا إسلاميّة معاصرة، ع14، 2001م، ص 187.

51- خان، وحيد الدين، الإسلام يتحدّى، مقدمة الطبعة الأولى لعبد الصبور شاهين، ص 15.

والتمدّن، والملكيّة (...) وغيرها من المواضيع. وبخصوص خطوات منهج كتابه (**الإسلام يتحدّى**)، فقد رُتّبت ترتيباً يكاد يكون طبق الأصل من كتاب (**الظاهرة القرآنيّة**) للجزائري مالك بن نبي، وهذه الملاحظة أثارت إعجاب عبد الصبور شاهين، وقد عُدَّ مالك بن نبي من روّاد الكلام الجديد في العصر الحديث؛ نظراً لما توافرت عليه مؤلّفاته من قضايا وإشكالات الفكر الإسلامي المعاصر التي عرضها بطريقة تحليليّة وتفصيليّة، وعالجها بمنهجيّة حديثة.

3-2- اتجاهات التجديد في الساحة الشيعيّة:

في طول الطريق الإسلامي، هناك خطّان: خطّ للفلاسفة، وآخر للمتكلّمين، وهذا الأمر ينطبق على الشيعة والسنّة، وبدهي أن يكون الأكثرَ ارتباطاً بعلم الكلام هم المتكلّمون، وفي الساحة الشيعيّة نجد اهتماماً كبيراً، وتحمّساً شديداً إلى تجديد علم الكلام، ويرجع ذلك إلى أصالة علم الكلام لديهم، وقدرته على تحرير المسلمين من التبعيّة الفكريّة.

وقد ظهرت، في الوقت الحاضر، اتجاهات جديدة في علم الكلام في إيران تحتضنها الجامعات الإيرانيّة، والحوزات العلميّة، ويمكن أن نضع ثلاث مراحل لظهور هذه الاتجاهات، حسبما أورده أحد المهتمّين بعلم الكلام، أحمد قراملكي:

المرحلة الأولى: مرحلة المواجهة المحرجة بين إيران والعالم الغربي في زمن الثورة الإيرانيّة في بداية القرن العشرين، وقد ظهر، في هذه المرحلة، بعض تلامذة العلّامة الطباطبّائي، والشهيد مرتضى مطهري الذي يُعدُّ أوّل من طرح الفكر الجديد في الكلام الإسلامي، ويجب أن ندعوه باسم «مؤسّس علم الكلام الجديد»، حسب ما ذكره همايون همتي في مقالته: **مدخل إلى مبادئ علم الكلام**.[52] وقد اعتنى مرتضى بطرح جديد للمسائل الكلاميّة القديمة بنحو ابتكاري، ومستقل، مستفيداً من العلوم الحديثة، وقد ترك مؤلّفات منها (**مقدّمة لرؤية كونيّة إسلاميّة**) يحتوي على آراء جديدة، ومباحث حديثة.

نجد، في هذه المرحلة، بروز علي شريعتي الذي حاول تقديم صورة إيديولوجيّة عن الإسلام، لينافس بها الإيديولوجيّات المعارضة للدين، مثل الماركسيّة.

المرحلة الثانية: طرح الإسلام، في عهد الثورة الإيرانيّة، طرحاً إيديولوجيّاً، واستطاع الإمام الخميني إحياء الفكر الديني، والبلوغ به ساحل الانتصار. في هذه الفترة، طُرِحت مسائل جديدة، فتمّ تدريسها في الجامعات والحوزات العلميّة، وتطوّر النقاش حولها إلى أن بلغ قمّته مع مشروع عبد الكريم سروش، صاحب

52- ينظر: مجلة المنطلق، عدد 119 خريف - شتاء 1998م.

مؤلّف (**القبض والبسط النظري للشريعة**) الذي أثار ردود فعل مختلفة ومتباينة بين مؤيّد ومعارض؛ لما أثاره من أفكار جديدة، إلى جانب مفكّرين ومثقفين آخرين.

المرحلة الثالثة: عرفت فيها الثقافة والفكر الإيرانيان إشكاليّة المنهج والمباني، وأهمّ مسألة فيهما مسألة القراءات المتعدّدة للتعاليم الدينيّة.

من خلال هذه المراحل، يتبيّن أنّ حقبة تصاعد تيّار الكلام الجديد كانت بعد الثورة الإسلاميّة عام (1979م)، لاسيّما حينما برزت التحدّيات التي واجهت الحكومة الإسلاميّة.

ما يزال علم الكلام الجديد في طور التبلور النظري، وما يزال النقاش متواصلاً حول مفهوم ونطاق التجدّد، فهناك من يذهب إلى أنّ التجدّد في الكلام لا يَطالُ إلّا ضلعاً خاصّاً من أضلاع الكلام المعرفيّة، وهو المسائل، ويُمثل هذا الرأي جعفر سبحاني، أبرز القائلين بهذا التصوّر، وهو يعكس، بالإجمال، وجهة نظر الحوزة العلميّة، وثمّة من يذهب إلى أنّ الكلام الجديد ذو هويّة جديدة لا علاقة له بالكلام التقليدي، وبعضهم الآخر يقول: إنّ الكلام الجديد يعني التجدّد في الهندسة المعرفيّة، وفي أضلاع النظام الكلامي التقليدي كافة، مع حفاظه على هويّته الأصليّة. على الرغم من التقدّم الحاصل في التنظير لهذا العلم على المستويات المعرفيّة كافة التي تتجلّى في التعريف الجديد الذي أُعْطِي للكلام، وهو أكثر اتساعاً من علم الكلام التقليدي الذي انعكس على موضوعه؛ ليصبح أكثر انفتاحاً، ويشتمل على قضايا معاصرة لم تكن مطروحة من قَبْلُ، وانعكس، كذلك، على منهج معالجته للقضايا والإشكاليّات المعاصرة التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالمناهج الحديثة والعلوم الإنسانيّة، وهذا يؤثّر في مقاصد أهداف الكلام الجديد؛ حيث سيصبح هناك مرامٍ جديدة فرضتها تحدّيات لم تكن موجودة في القرون الإسلاميّة الأولى.

4- ملاحظات نقديّة حول علم الكلام الجديد:

سرد يحيى محمّد، في مقال له في مجلة: **قضايا إسلاميّة معاصرة**، العدد الرابع عشر، جملة من الانتقادات حول علم الكلام الجديد، وسنعرض، فيما يأتي، بعضاً منها، مع تقليب النظر فيها:

أوّلها: افتقاده الوضوح المنهجي في التعامل مع القضايا، فهو، في جملة الكتابات، نجده يدافع عن قضايا النصّ، كما يلاحظ في عدد من الكتابات التي تدفع شبهات الغربيين والمستشرقين حول حقوق المرأة والإنسان، لكنّه، في كتابات أخرى، نراه يلجأ إلى التوفيق مع مقتضيات العصر، وذلك بتوجيه المفاهيم والنصوص الإسلاميّة توجيهاً يناسب الواقع الجديد، كتعامله مع قضايا المساواة، والحريّة، والمواطنة، والديمقراطيّة، وما إليها.

وثانيها: أنّ علم الكلام الجديد ما زال في طور الثقافة، ولم يتحوّل بعدُ إلى التأسيس العلمي التخصّصي.[53]

كما أورد بعض الملاحظات للمهتمّين بالكلام الجديد على الشكل الآتي:

أ- ينبغي التحرّر معرفيّاً من النزعة الإيديولوجيّة بالمعنى الدالّ على الانتماء الاجتماعي، فإذا ما أُريد للكلام الجديد أن يتقدّم خطوة باتجاه العلم الحقيقي المثمر، فلا بدّ من أن ينزع عن جلده كلّ ما يعلق به من براثن مذهبيّة.

ب- ينبغي تحويل ثقافة الكلام الجديد إلى علم تخصّصي، وما تزال الأسئلة حول طبيعته وهويّته قائمة، وقد طرح بعض الباحثين في الكلام الجديد هذه الملاحظة على شكل سؤال مفاده:

«أعلم الكلام علم تخصّصي كباقي العلوم الطبيعيّة، كالفيزياء، والكيمياء، والرياضيّات، أم هو تناولات ثقافيّة جماهيريّة دون أن يتمّ تبلوره في كينونة علميّة»؟[54]

علم الكلام نخبوي وغير مباح ومتاح للجميع، وذلك ما رفضه بشدّة محمّد حسين فضل الله، حيث عَدّ أنّ «هذا العلم، بالدرجة الأولى، جماهيري، وليس نخبويّاً؛ بل إنّ نخبويّته ما هي سوى نتاج تاريخي للتضخّمات الكميّة فيه».[55]

ثمّة من يسجّل على المتكلّم الجديد خوضه في قضايا ومفاهيم مرتبطة بالحداثة الغربيّة، التي لم يشارك في صنعها، وبعضهم الآخر يلاحظ أنّ الكلام الجديد عبارة عن تداخل مجموعة من المعارف والعلوم، ما حدا ببعضهم إلى اقتراح تسمية هذا العلم بـ: **فلسفة الدين؛ بدلاً من وسمه بالكلام الجديد**، وعلى فرض الإيمان بهذا المشروع التجديدي للعلوم الإسلاميّة، وعلم الكلام تحديداً؛ تطرح إشكاليّة مفادها: مَن يحتضن مشروع الكلام الجديد، في ظلّ أزمة المؤسّسة العلميّة والدينيّة، في الوطن العربي والإسلامي؟ وثمّة من يشكّك في التحمّس الذي أبداه الكثير من الباحثين الشيعة لتجديد علم الكلام، هذه الدعوى -في نظرهم- تروم نسف علم الكلام القديم الذي يعبّر عن عقائد أهل السنّة والجماعة، وهذا ما يفسّر أنّ الدعوى للتجديد قد يكون من ورائها هدف إيديولوجي، أكثر من كونه هدفاً معرفيّاً.

53- مجلة قضايا إسلاميّة معاصرة، العدد الرابع عشر، 2001م.

54- حبّ الله، حيدر، قراءة في إشكاليّات النقد والتحديث لعلم الكلام عند العلّامة فضل الله، مجلة الوعي المعاصر، العدد11/10، السنة3، 2003م، ص 223.

55- المرجع نفسه، ص 221.

وثمّة من يدعو لتجاوز علم الكلام قديمه وجديده؛ لأنّ النتاج الكلامي ينتمي إلى «براديم» قديم[56]، بحسب رؤية ابن خلدون الذي انتقد علم الكلام انتقاداً شديداً، وعَدَّه طمعاً في المُحال، بما أنّه يخوض في قضايا (موضوعات) غيبيّة وقطعيّة يجزم بها مَن يعتقد بها، وهذا يتناقض مع العلوم الحديثة القائمة على الموضوعيّة، والعقل، والنسبيّة، في حين قضايا من قبيل الألوهة، والنبوّة، والمعاد، قائمة على التسليم والإيمان.

إنّ القول بعدم الحاجة إلى علم الكلام في عصر ابن خلدون، كلام لم يرق للباحث محمّد زاهد جول[57]؛ حيث عدّه دعوة خطيرة تشبه القول بإغلاق باب الاجتهاد، وتعبّر -في نظره- عن رؤية قاصرة لماهيّة هذا العلم الأصيل ووظيفته.

وبذلك، لا يعدّ ابن خلدون -بنظر زاهد جول- في زمرة المتكلّمين، ولا من المبدعين في هذا العلم، فليس له رأي يخرج عن المذهب الأشعري الذي تحيّز له في أقواله، غاضّاً الطرف عن آراء المعتزلة.

على سبيل الختم:

حسبنا، في هذ البحث المتواضع، أن أثرنا هذا الموضوع، الذي -في نظرنا- يحتاج إلى مزيد من التناول النظري، في جميع أبعاده المعرفيّة، لتعود لهذا العلم رسالته، ووظيفته، كما كان في فترة أوجه وازدهاره، وذلك يقتضي نحت تعريف أكثر انفتاحاً، وتناول موضوعات أكثر اتّساعاً، وتوظيف مناهج أكثر تجديداً، واستعمال لغة أكثر بساطةً وسلاسةً.[58] كما يمكن تحديد مقاصد الكلام الجديد في وضع نظريّة في الوجود يغلب عليها الطابع الإنساني، بعبارة أخرى؛ أنسنة علم الكلام لينطلق من هموم الإنسان وواقعه، فلا يستغرق في التجريد؛ لأنّ ما تميّز به علم الكلام في التاريخ إهماله مبحثَ الإنسان وحياته ودوره ومشاكله المتجدّدة؛ أي: الارتباط بالحياة العمليّة، والتركيز على الوجود الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي للناس، بدلاً من الوجود الطبيعي، أو الميتافيزيقي، كما فعل المتكلّمون القدامى.

56- ينظر: الجليدي، مصدق، أزمة العلوم العقليّة في الإسلام الوسيط: علم الكلام نموذجاً، مداخلة ضمن الندوة العلميّة الدوليّة التي نظّمتها الرابطة المحمّدية للعلماء في مدينة أكادير، يومي 13 - 14 ربيع الثاني 1431هـ، الموافق 30-31 آذار/ مارس 2010م، تحت عنوان: (العلوم الإسلاميّة أزمة منهج أم أزمة تنزيل؟) وقد صدرت أعمال هذه الندوة كاملة، عن دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2011م.

57- ينظر: كامل جول، محمّد زاهد، علم الكلام الخلدوني، مجلة (إسلاميّة المعرفة)، السنة 13، العدد 51، شتاء 1428هـ / 2007م (يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عدد خاص بابن خلدون).

58- هذا الهاجس، الذي عبّرنا عنه، نجد مثيلاً له لدى الباحثة هاجر دوير في كتابها: علم الكلام المعاصر في ضوء المتغيّرات الحديثة، الصادر عن بيت الحكمة العراقي، بغداد، 2011م.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربيّة:

1- ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدّمة**، حققها وقدّم لها وعلّق عليها: عبد السلام الشدادي (5 مج)، الدار البيضاء، ط1، 2005م.

2- أبو ريان، محمّد علي، **تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام (المقدّمتان ـ علم الكلام ـ الفلسفة الإسلاميّة)**، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، بيروت، 1976م.

3- الأيجي، عضد الدين، شرح المواقف، بشرح السيد الشريف علي بن محمّد الجرجاني، حققه وخرّج أحاديثه: الدكتور عبد الرحمن عميرة، المجلد الأول، ط1، 1998م، دار الجيل، بيروت.

4- بلاجي، عبد السلام، **تطوّر علم الأصول وتأثره بالمباحث الكلاميّة**، كليّة الآداب، محمّد الخامس، الرباط، وحدة المناهج، (أطروحة لنيل دكتوراه مرقونة).

5- التفتازاني، العلّامة سعد الدين، **شرح العقائد النسفيّة**، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليّات الأزهريّة، مصر، ط1، 1407هـ/1987م.

6- خان، وحيد الدين، **الإسلام يتحدّى**، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط1.

7- الزحيلي، محمّد، **مرجع العلوم الإسلاميّة: تعريفها- تاريخها ـ أئمتها ـ علمائها ـ مصادرها**، دار المعرفة.

8- السيوطي، الإمام جلال الدين، **صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام**، تحقيق: د. علي سامي النشار والسيدة سعاد علي عبد الرزاق، ج1، سلسلة كتاب إحياء التراث، مجمع البحوث الإسلامي، القاهرة، 1970م.

9- عبد الرحمن، طه، **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000.

10- عبده، محمّد، **رسالة التوحيد**، تحقيق: محمّد أبو ريان، دار المعارف.

11- الغزالي، أبو حامد:

- **إحياء علوم الدين**، دار الرشاد الحديثة، المجلد1.

- **المستصفى في علم الأصول**، م1، طبعة جديدة، رتبها وضبطها: محمّد عبد السلام الشافي، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان.

12- فخري، ماجد، **تاريخ الفلسفة**، بالإنجليزيّة، نقله إلى العربيّة كمال اليازجي، الدار المتحدة للنشر.

13- المغربي، د. علي عبد الفتاح، **الفرق الكلاميّة الإسلاميّة مدخل ودراسة**، سلسلة دراسات كلاميّة (1)، الناشر مكتبة وهبة، ط1، 1407هـ/1986م.

14- المقدسي، الإمام ابن قدامة، **تحريم النظر في كتب الكلام**، تحقيق: سعيد دمشقي، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 1410هـ/1990م.

المجلّات:

1- مجلة إسلاميّة المعرفة، السنة 13، العدد 51، شتاء 1428هـ / 2007م.

2- مجلة الحياة الطيّبة، العدد 9، ربيع 1423هـ / 2002م.

3- مجلة قضايا إسلاميّة معاصرة، الأعداد 17/16/14 (1422هـ / 2001م).

4- مجلة المحجّة، العدد 2، 2002م.

5- مجلة المسلم المعاصر، السنة 15، العدد 60، (شوال - ذو القعدة - ذو الحجة)1411هـ، (أيار/مايو- حزيران/يونيو- تموز/يوليو) 1991م.

6- مجلة المنطلق، العدد 119، خريف - شتاء 1998م.

7- مجلة الوعي المعاصر، العددان 10-11، السنة 3، 2003م.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © 2018